

معاني التوبة في القرآن الكريم



(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ* هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوْسَابٍ حَفِيطٍ* مَنُ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَظِيمَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ* ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ) (ق/ 34-31). إنَّ الله سبحانه في هذه الآية الشريفة يبيِّن معنى قوله: (لِكُلِّ أَوْسَابٍ)، فهو الذي يخشى الله في كلِّ أموره وطول حياته، حتى أصبح الرجوع إلى الله عنده ملكة راسخة، تتجلى آثارها عند الموت، فيدخل الجنة بسلام آمن، ليخلد فيها متنعماً بلا لغوب، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين، وما لم يخطر على قلب البشر. فمن أذنب فليرجع سريعاً إلى ربه، ويتوب ممّا فعل ولا يعود، فإنَّ الله هو التواب الرحيم يقبل التوبة من عبده المنيب الخائف، ومن تاب الله عليه فإنَّه يدخل الجنة بسلام خالداً فيها أبد الأبد. وهذه بشرى تفرِّح قلوب المؤمنين والملتقين، وتهوِّن عليهم مصائب الدنيا وهوانها، وتسهِّل عليهم مشاكلها وصعابها. قال الرسول الأكرم محمد (ص): إنَّ الله آتية في الأرض فأحبُّها إلى الله ما صفا منها ورقٌ وصلب، هي القلوب، فأما ما رقٌ منها: فالرفقة على الإخوان، وأما ما صلب منها: فقول الرجل في الحقِّ لا يخاف في الله لومة لائم، وأما ما صفا ما صفت من الذنوب، والصفاء ابتداءً بأن لا يذنب أولاً وأبلى من الصفاء بعد الذنوب، وذلك بالتوبة والإنابة إلى الله سبحانه، وإن كان عزَّ وجلَّ يغفر الذنوب جميعاً إلا ما أشرَّك به، فإنَّه ستَّار العيوب غفار الذنوب، والغفار صيغة مبالغة تعني أنَّ العبد مهما أذنب فإنَّه لو رجع وتاب واستغفر فإنَّ الله هو الغفار الرحيم، وإنَّه كريم الصفح، بمعنى أنَّه يغفر الذنوب، بل يمحي كلَّ الآثار ويكون الإنسان كيوم ولدته أمُّه، له قلب طاهر سليم، وصفحة بيضاء، فعليه أن يستأنف العمل وأن يملئها بالصالحات. لا يخفى أنَّ القصد إلى الله تعالى بالقلوب أبلغ وأشدَّ من القصد إليه بالبدن، وحركات القلوب أبلغ من حركات الأعمال، فإنَّه سبحانه وتعالى ينظر إلى القلوب لا إلى الصور والأموال، فعلينا أن لا نغفل عن ذكره، فإنَّه من غفل قيَّض الله له شيطاناً يغيِّره ويضلُّه ويغويه، ومن نسي الله نسي نفسه، فيشتغل بغير الذي من أجله خُلِق، أي بغير العبادة وبغير الله فيصاب بالخفض والهوان والتوقُّف عن المسير إلى الله سبحانه، وإنَّما يفتح القلب لبركات الله لو رضي عن الله، وإنَّما يرفع في أعلى عليين لو ذكر الله: (في بيوت أذن الله أن ترفع وترفع يدك عن الأرض والسموات) (البقرة/ 36). وكما في علم النحو إعراب وبناء، والإعراب رفع وفتح وخفض ووقف، فكذلك القلوب كما ورد عن الإمام الصادق (ع) قال: إعراب القلوب على أربعة أنواع: رفع وفتح وخفض ووقف، فرفع القلب في ذكر الله، وفتح القلب في الرضا عن الله، وخفض القلب في الاشتغال بغير الله، ووقف القلب في الغفلة عن الله. فهلمَّ أيُّها الأصدقاء، يا إخوان الصفا إلى العلم النافع والعمل الصالح، ولنعرف الهدف في حياتنا ومماتنا، ونعرف المبدأ والمعاد، فإنَّ كلَّ إنسان لا يخلو من أهداف في حياته الفردية والاجتماعية، وأنَّ الله يشير إلى ذلك في قوله تعالى: (وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُودٌ مِّمَّا وُلِّيَها) (البقرة/ 148). فلكلَّ واحد - المسلم والكافر، الرجل والمرأة، الصغير والكبير، الحرَّ والعبد - وجهة وأهداف، وهو المسؤول عنها فهو مولِّيها. ثمَّ

حياته لها مبدأ ومنتهى والمبدأ الأول هو □ سبحانه والمعاد إليه، فإنَّ □ وإنَّما إليه راجعون، فهو الأول وهو الآخر، وقد جعل للإنسان صراطاً مستقيماً يوصل الإنسان لو سار فيه إلى الملك المقدر، وإلى جذة النعيم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ونصب له في هذا الصراط الأضوية الوهَّاجَة والشموع المضيئة وهم الأنبياء والأوصياء وورثتهم العلماء الصلحاء، كما علَّمه أن يكون له الهمة العالية وأودع فيه ذلك، فلا يكتفي بالأدنى ولا تغرَّه الدنيا الدنيَّة، فإنَّها دار ممرٍّ وليس دار مستقرٍّ، عليه أن يتزوَّد منها بخير الزاد، وخير الزاد التقوى، فعلمه من خلال أدعية أنبياءه ورسله أن يطلب من □ أسنى المطالب وأعلاها سواء كانت دنيوية أو أخروية مادية أو معنوية: فهذا إبراهيم الخليل يطلب من ربِّه أن يكون للمتَّقِّين إماماً: (رَبِّ زِدْنِي عِلْماً هَبْ لَدُنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَدُنَا لِمَتًا قَرِيبِينَ إِمَامًا) (الفرقان/ 74). وفي طلب الدنيا يطلب سليمان من ربِّه قائلاً: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْدِبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي) (ص/ 35). وهاتان الآيتان تعلِّمان أنَّه كيف نكون أصحاب همة عالية، ولا نرضى بالدون والشيء الرديء، ففي المطالب الدنيوية نطلب من □ المُلْك، وفي المعنوية نطلب منه أن نكون إماماً للمتَّقِّين، بمعنى أن المتَّقِّين بجانب والداعي بجانب، له ما لكل المتَّقِّين، وهذا غاية المعنويات من الأعمال الصالحة، كما أن طلب الملك غاية الماديات من الدنيا، ولكن هناك شيئاً عظيماً مهما بلغ الإنسان فيه، فإنَّه لم يأت منه إلا القليل، وهو العلم: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) (الإسراء/ 85). وإنَّ سبحانه يأمر نبيِّه الأكرم أن يدعوه بقوله: (رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) (طه/ 114). وهذا يعني أنَّ العلم لا نهاية له، فإنَّ العلم هو □ سبحانه، وأنَّ □ واجب الوجود مستجمع الصفات الكمالية بلا حد ولا نهاية، وأنَّ العلم من الصفات الذاتية، فهي عين الذات كما هو الحقُّ، خلافاً لمن يقول بزيادته على الذات، فإنَّه يلزمه تعدُّد القدماء، كما هو ثابت في محلِّه. فالإنسان إذا كان هدفه □ وله مثل هذه الهمم الراقية والبليغة، لا يشبع من طلب العلم، ولا يفتر من عبادة ربِّه، فينيب إليه بقلب منيب، ويهتدي إليه بكتب □ ورسله، ويدخل الطرق والسبل الإلهية التي تنتهي إلى الصراط المستقيم ويجاهد في □ جلَّ جلاله: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (العنكبوت/ 69).